سلسلة رسائل العين

الرسالة السابعة

تقويم الذات



الدكتور عادل الشويخ



سلسلة رسائل العين

الرسالة السابعة

تقويم الـــذات

الدكتور

عادل عبد الله الليلى الشويخ

طبعة خاصة بـ

دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية

دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية

طنطا ٣٣ ش الشهيد عادل الزواوي - أمام كلية التربية النوعية

ت ٣٢٢٤٠٤ — فاكس ٣٣١٨٠٠


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


بسم الله الرحمن الرحيم



★★ إنه خيط من ضوء ، يمثل عينة مقتبسة من أعماق الروح ، ترسله رغبة التقويم ، لتجرى عليه عملية التحليل ..

★★ فيشق الضوء طريقه في ظلمات الخفاء والأسرار الدفينة ..

★★ فيلتقطه موشور الصراحة القلبية قبل وصوله إلى مرآة آراء الناس ، ويرى أنه أولى منهم ، وبالمهمة أجدر ، وعليها أقدر ، فيعكس الومضة المبتعثة ، فيحللها إلي ألوان الطيف النفسى ، ويكشف عن المكنون ...

★★ فتعكسها ثانية عدسة النقد الذاتى المقعرة ، ولا تسمح بتبديدها في تيه اللانهاية ...

★★ فتنتصب الصورة الفردية قائمة ...

★★ فإن كانت لثقة : فستكون شامخة ...

★★ وتلك هى صورة الغلاف التى صممها وجمع إشاراتها : محمد أحمد الراشد ...





تقويم
الذات

تقويم الذات

قد يضطر الداعية فرداً كان أو مسؤولاً للحديث عن نفسه جرحاً أو تعديلاً ، ويتباين حجم هذا الحديث من شخص لآخر ، كما يختلف خفة وجنوحاً ، وتختلف الدوافع له ، فقد يتحوّل من التواضع الملازم لنقد الشخص نفسه إلى التكلف ، ومن المدح التعريفي إلي الغرور المذموم ، وتتباين استجابة الآخرين كذلك لكل من الذم والمدح معاً ، ما بين مصدق ومكذب ، أو بين راض مشارك أو رافض مناكف ، وما بين مستمع معجب ، أو ساكت على مضض ، وبالتالى فإن عملية التقويم قد تكون نافعة فى بعض الأحيان ، ولكنها مضرة في معظم الأحايين ، وقد يلجأ إليها الداعية أحياناً ، ـ دونما شعور بالضرر ـ مما يؤدى إلى تصاغره فى أعين إخوانه ، وقد يبرر البعض لأنفسهم عذراً ، بينما تكون قاصمة لظهره عند غيره .

ومن جهه أخرى ، قد يلجأ الداعية الأمير أو المربى لتبيان نفسه بالحق ،بالخير الذى عنده ، ووفق موازين شرعية صحيحة ، ولكن

قصور الفهم عند غيره ، وعدم إدراكهم لأدلة المدح الشرعية أو الموازنة بين المصالح يسبب إعابة لقوله الصحيح ، وقد يؤدى إلي أن يلجأ البعض إلي النقد والتجريح ، والبعض إلي الثناء والمديح ، ولما بينهما من بون في التقويم تحصل القالة ، وقد تتطور إلي فتنة بعد غيبةٍ ونجوى.

إن حصول هذه الظاهرة وسط الجماعة المؤمنة ، تقود إلى ضرورة بيانها كمفهوم تربوى ، يحتاجه القدماء كحاجة الجدد ، ولا بد من إيضاح أدلته الشرعية ، ووضع الموازين الضابطة له ، التى تخدم الأهداف ، وتقى مواطن الزلل ، ومكامن الخلل .

★ الواثق ... اللوّام ★

● يتميّز تقويم الداعية لنفسه بأحد أمرين ، أولهما : نقد ذاته ، وتجريح نفسه ، ولومها أمام الناس ، بل والحديث عن نقائصه ، وذنوبه ، ومحاولة إبداء التواضع باتهام نفسه بالعبارات القاسية، وإضافة خصائص النقص لذاته ، وهذا مما لا يجوز شرعاً فقد قال رسول الله ﷺ :

« لا يقولن أحدكم خبثت نفسى ، ولكن ليقل :لَقِسَت نفسى »[1]

مما يدل على كراهية مثل هذه الأقوال ، وهي ليست من التواضع - وإن كان صاحبها صادقاً - لما فى ذلك من أثر تربوي علي النفس في إضافتها للصفات القبيحة ، وفى هذا الحديث :

(١) رواه البحارى ومسلم .

(أن المرء يطلب الخير حتي بالفأل الحسن ، ويضيف الخير إلى نفسه ولو بنسبة ما ، ويدفع الشر عن نفسه ما أمكن ، ويقطع الوصلة بينه وبين أهل الشر حتي في الألفاظ المشتركة ... ويلتحق بهذا أن الضعيف إذ سئل عن حاله ، لا يقول : لست بطيب ، بل يقول : ضعيف) [1] .

أمّا إذا كان نقد النفس يحمل بين طياته نيّة فاسدة كمحاولة إظهار فضل النفس وتواضعها ، وابتعادها عن المدح والثناء ، أو لاستجلاب المدح بطريقة ملتوية ، فالأمر أقبح وأسوأ ، وهو من الرياء المبطن ، والتكلف المذموم ، والتفاخر المغلف .

ومما ورد في ذلك :

قول الحسن : (ذم الرجل نفسه في العلانية ، مدح لها في السر)

وكان يقال : (من أظهر عيب نفسه فقد زكاها) [2] .

● وقد يحصل أحياناً أن ينقد المرء نفسه حتى ينسحب من تكليف ، أو نتيجة ضعف ثقة بالنفس ، أو أن الشيطان يزيّن له الأمر ويأتي له عن طريق التقوى والإيمان ليبعده عن فعل الخير ، كما قد ينقد نفر آخر أنفسهم من أجل أن ينكر عليهم المقابل هذا النقد ، فيأخذ الذام لنفسه بالمفهوم المضاد فيفرح طرباً حيث استجلب لنفسه المدح المبطن

---

(١) فتح الباري ١٠ / ٥٦٤ .

(٢) عيون الأخبار / ٢٧٥ .

عن طريق ملتو ، أمّا إذا أراد الإنسان معاتبة نفسه ، ورد كيد الشيطان ، ومحاسبة ذاته فهذا كله شيء حسن ، ولا بد للمؤمن منه ، ولكن بشرط أن يفعله ما بينه وبين الله تعالي ، وإلا تحول إلى نوع من الغرور حتى يقع في تلبيس الشيطان ، ويتحول من غرور إلى آخر ، بل هذه المحاسبة الحقة ، وفيها رد لكيد الشيطان ، ومجانبة للرياء الخفى ، والمحاسبة لابد منها لصدق المراقبة ، ومن حاسب نفسه فى الدنيا ، خف يوم القيامة حسابه ، وحسن منقلبه ، ومن أهمل المحاسبة دامت جسراته ، وهذه المحاسبة تكون بعد العمل ومع النفس .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، ولتنظر نفس ما قدمت لغد**﴾[1] .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا) .

وقال الحسن رضى الله عنه : (المؤمن قوّام علي نفسه ، يحاسب نفسه)[2] .

● ومن مقتضيات المحاسبة الشرعية توبيخ النفس ومعاتبتها وذمها ، لتقويمها وقودها لعبادة ربها ، ومنعها عن شهواتها ، وفطامها عن لذاتها ، فقد خلقت النفس أمّارة بالسوء . فهذا النقد للنفس والمعاتبة في

---

(١) الحشر / ١٨ .

(٢) إحياء علوم الدين ٤ / ٤٠٤ .

الخلوات هو المطلوب ، ويزداد عز المؤمن ، وتطمئن نفسه بزيادة المعاتبة لها ، واستصغار عمله أمام الباري عز وجل ، فالنفس :

(إن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة ، كانت نفسك هى النفس اللوامة التي أقسم الله بها ، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلي أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية ، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل بوعظ نفسك .....) (١) .

****

★ مفصل التزكية بِشُعَبُ طرق التردية ★

● لقد سبق الحديث عن ذم الإنسان لنفسه فى خلوته وأمام غيره ، والحكم فيها ... أما مدح الإنسان لنفسه فالأصل فيه عدم الجواز ، وعليه مدار ذم أمراض القلوب ، وعلى ذلك جرت سُنَّة الخلفاء الراشدين العامة والصحابة ، وعلى هذا المنوال سار السّلف الصالح ، استناداً إلى قوله تعالي :

قوله : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ (٢)

وقوله : ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ، بل الله يزكى من

(١) إحياء علوم الدين ٤ / ٤١٦ .

(٢) النجم / ٣٢ .

يشاء ولا يظلمون فتيلا ﴾[1] .

سواءً كان المدح مع نفسه ، وهو ما يسمى بالعجب أو الغرور ، أو أمام غيره من الناس ، وهو المقصود هنا . وعلة الكراهيّة فيه أو عدم الجواز أنه مظهر من مظاهر عيوب القلب غالباً ، ويعكس مدح النفس والمبالغة بإطرائها مجموعة من أمراض القلوب ، بل وقد يقود إليها ، ومنها:

(١) الرياء وحب الجاه والرئاسة :

إذ يغلبُ ذلك على قلب الضعيف ، فيقصر همّه على طلب المديح ، فإذا افتقده : طلب ذلك بنفسه مراعاة للخَلق ، ولشغفه بإبراز ذاته ، وإظهار حاله ، كي تعظم منزلته في عيون الآخرين ، وفي ذلك مظهر من مظاهر النفاق ، والشهوة الخفية ، وقد يضطر إلى المماراة ، واقتحام المحظور حتي يتوصل إلى اقتناص القلوب .

(٢) الكِبْر :

إذ هو خلق باطن تظهر ثمرته على الجوارح ، وفيه يري المرء نفسه أعلى من غيره بصفات الكمال ، ولا يقدر على التواضع ، ويقوده إلى الغضب لنفسه ، ولا يكظم الغيظ ، ولا يقبل النصح ، فتظهر هذه الخصائص بأشكال متعددة ، منها : أن يظهر الكِبْر على لسانه بالدعاوى

---

(١) النساء / ٤٩ .

والمفاخر والمديح ، وتزكية النفس ، وحكايات الأحوال فى معرض المفاخرة لغيره ، ومدح النفس بالعلم والعبادة ، أو بالذكاء والتجربة ، أو بالأخلاق والنسب .

(٣) العُجْب :

وهو أحد أسباب الكبر وقائد إليه ، فقد لا يصل الإنسان إلى مرحلة التكبر على غيره ، ولكنه معجب بنفسه ، ينظرإليها بعين الرضا، يركز على محاسنه ، وينسى المساوئ ، ويظن أن ما عنده من نعم كبيرة إنما أوتيها على علم منه ، إلى الحد الذى ينسى أنها من فضل الله تعالى ، وذلك هو ظن قارون الذى أرداه ، بل يظن أنه ظفر بكل ما يريد ، حتى يرى الصغير فى نفسه كبيرا ، بل قد يستعظم طاعته وكأنه يمن على الله تعالى وعلى الإسلام بعمله أو قوله .

(٤) الغرور :

وهى آفة أخرى تظهر على شكل مديح النفس ، من أجل إظهار مخايل الكبر والرئاسة ، ويبرر المدح بطلب عز الدين ، وإظهار شرف العلم وإرغام أهل البدع والمعصية ، وقد يدعى أنه يمدح نفسه ليقتدى الناس به بالعلم والعمل ، أو أنه يشفع في جلب مصلحة أو لدفع ضرر ، وغير ذلك مما يلبس عليه الشيطان ، فيفقده حسن النية ، ويكون باعثه طلب الذكر وانتشار الصيت .

(٥) الحقد والحسد :

وهما من بواعث مدح الذات ، إذ أنهما يقودان إلى غليان القلب ، وطلب الانتقام ، كي لا يحمل سكوته أو عدم مدحه لذاته أنه عاجز ، أو يحمل منه على الذله والمهانة ، أو خوفاً من استصغار الناس له فتلازم النفس عداوة ، فيغلب على صاحبها حب الثناء ، ويستفزه الفرح بما يمدح به .

وواحدة من هذه العلل كافية لرفض مدح الذات ، والتبرؤ من إطراء النفس ، فكيف بها إذا اجتمعت ؟ ولقد تكاثرت النصوص واستفاضت في كراهية هذا الأمر ، مما يستغنى عن الاستفاضة في الحديث عنه .

★ المصالح مبْرِّلَةُ المصالح ★

● ولكن يُستثنى من هذا الأصل في عدم جواز مدح النفس حالات يجوز فيها المدح ، بل ويستحب أحياناً ، ويصل - في بعض الأحيان - إلى درجة الوجوب ، وهذا الاستثناء محدد بضوابط وحدود يجمعها عامل المصلحة الشرعية ، وبعض العلماء لم يأذن بمبدأ الاستثناء من الأصل ، وإنما اعتبر مدح الذات على نوعين محمود ومذموم ، ومنهم الإمام النووي حيث قال :

(اعلم أن ذكر محاسن نفسه ضربان : مذموم ، ومحبوب ...

فالمذموم : أن يذكره للافتخار وإظهار الارتفاع ، والتميز علي الأقران ، وشبه ذلك .

والمحبوب : أن يكون فيه مصلحة دينية ، .....) [1] .

ولا مشاحة فى التقسيم فالنتيجة واحدة .

ومن أجل تبيان جواز المدح نذكر بعض الأدلة والشواهد التى تدل على الجواز ابتداءً ، كما أنها توضح المواطن التى يجوز فيها المدح .

- منها : قول النبى صلى الله عليه وسلم يوم حنين :

« أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب » [2] .

(وفيه جواز الانتساب إلى الآباء ولو ماتوا في الجاهلية . والنهى عن ذلك محمول على ما هو خارج الحرب ، ومثله الرخصة فى الخيلاء فى الحرب دون غيرها ... وفيه شهرة الرئيس نفسه فى الحرب مبالغة فى الشجاعة ، وعدم المبالاة بالعدو) [3] .

ورغم وضوح الاستدلال ، وتخصيص هذا الأمر بالحرب ، ففى غيره من الأحاديث سعة ، فلقد جاء فى هذا المعنى أحاديث كثيرة منها :

---

(١) الأذكار / ٢٣٨ .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) فتح البارى ٨ / ٣٢ .

« أنا سيد ولد آدم » ، « أنا أعلمكم بالله وأتقاكم » ، « أنا أحق من وفّى بذمته » ، « أنا أفصح العرب » ، « أنا أكثر الأنبياء تبيعاً يوم القيامة » ، « أنا حبيب الله ولا فخر » .

وجميعها تدل على جواز المدح في الحرب وغيره .

● وأقوال الصحابة كثيرة جداً .. منها :

مدح عثمان رضى الله عنه لنفسه حيث قال محاججاً من ثار عليه وتربّص به :

(.. ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : من حفر بئر رومة فله الجنة ، فحفرتها ؟ ألستم تعلمون أنه قال : من جهز جيش العسرة فله الجنة ، فجهزتها ؟) فصدّقوه بما قال ....

وهو جزء من حديث طويل ، قال فى شرحه ابن حجر ـ رحمه الله ـ :

(وفيها جواز تحدث الرجل بما فيه عند الاحتياج إلى ذلك لدفع مضرة أو تحصيل منفعة ، وإنما يكره ذلك عند المفاخرة والمكاثرة والعجب) [(١)] .

ـ ومدح ابن مسعود رضى الله عنه نفسه فقال :

---

(١) فتح البارى ٥ / ٤٠٨ .

(... والله لقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أنى من أعلمهم بكتاب الله تعالى ، وما أنا بخيرهم ...) .

وقال :(والله الذى لا إله غيره ، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن نزلت ، لو أعلم أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه) [١] .

وواضح أن مدحه لنفسه كان لرد اعتراضات عليه .

ومنها ما قالته عائشة بنت سعد رضي الله عنها :

(أنا ابنة المهاجر الذى فداه رسول الله ﷺ بأبويه يوم أحد) [٢] .

وغير ذلك ، مما هو كثير فى أقوال الصحابة فى مناسبات شتى ، وكذلك فى أقوال التابعين مما لا يترك مجالاًللاعتراض على جواز المدح .

وبقى بعد ذلك أبرز دليل : ما كان من القرآن الكريم ، وهو قول يوسف عليه السلام .

﴿قال اجعلنى على خزائن الأرض ، إنى حفيظ عليم﴾[٣] .

وهذا من مدح نفسه .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) شرح السنة للبغوى ١٤ / ١٢٤ .

(٣) سورة يوسف / ٥٤ .

قال الرازى :

(إن مدح النفس إنما يكون مذموماً إذ قصد به الرجل التطاول والتفاخر ، والتوصل إلى غير ما يحل ، فأمّا على غير هذا الوجه فلا نسلم أنه محرم) [1] .

وقال القرطبى : (ودلت الآية أيضاً على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل) .

قال الماوردى : (وليس هذا على الإطلاق فى عموم الصفات، ولكنه مخصوص فيما اقترن بمصلحة ، أو تعلّق بظاهر من مكسب ، وممنوع منه فيما سواه ، لما فيه من تزكية ومراءاة) (فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله) [2] .

وفى كتب التفسير الأخرى مزيد من ذلك ، وكذلك فى شروح متون الحديث ، ومظان وجودها فى كتب التفسير عند تفسير سورة يوسف ، أمّا فى الشروح الحديثية ففى أبواب المناقب السِّيَر ..

وسوف يأتى المزيد من الشواهد عند الاستدلال بها للأحوال الخاصة التى يجوز فيها مدح النفس .

❊❊❊❊

(١) تفسير الرازى ١٨ / ١٦١ .

(٢) تفسير القرطبى ٩ / ٢١٧ .

★ نواتر التقعيد ★

● من خلال استقراء النصوص السابقة وغيرها ، يتبين جواز مدح النفس عند المصلحة والحاجة ، وهو مما يحتاجه الدعاة أيضاً في مناسبات شتى وظروف مختلفة ، فلا بد من فهم هذه الظروف والملابسات التي تجوز مثل هذا الأمر حتى لا يمتنع عنها الداعية تورعاً أو حياءً ، أو يُنتقد عليها القائد أو الأمير جهلاً أو تنقيصاً ، وبذلك تفوّت مصالح راجحة على الدعوة .

وسوف نقتصر هنا على ثلاثة نصوص تشمل أكثر هذه الظروف والأحوال التي يجوز فيها مدح النفس ، ثم نذكر بعدها الحالات بشكلها التفصيلي :

الأول: ماذكر الإمام النووي في كتابه (الأذكار) :

(... والمحبوب أن يكون فيه مصلحة دينية ، ذلك بأن يكون آمراً بمعروف ، أو ناهياً عن منكر ، أو ناصحاً ، أو مشيراً بمصلحة ، أو معلماً أو مؤدباً ، أو واعظاً ، أومذكراً ، أو مصلحاً بين اثنين ، أو يدفع عن نفسه شراً ، أو نحو ذلك فيذكر محاسنه ناويا بذلك أن يكون هذا أقرب إلي قبول قوله ، واعتماد ما يذكره ، أو أن هذا الكلام الذي أقوله لا تجدونه عند غيري فاحتفظوا به ، أو نحو ذلك ...) [1] .

---

(١) الأذكار / ٢٣٨ .

الثانى : ماذكره سلطان العلماء العز بن عبد السلام فى (قواعد الأحكام فى مصالح الأنام) :

(ولا يمدح المرء نفسه إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، مثل أن يكون خاطباً إلى قوم فيرغبهم فى نكاحه ، أو ليعرف أهليته للولايات الشرعية والمناصب الدينية ، ليقوم بما فرض الله عليه عيناً أو كفاية ، كقول يوسف عليه السلام : ﴿**اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم**﴾. وقد يمدح المرء نفسه ليُقتدى فيما مدح به نفسه كقول عثمان ـ رضى الله عنه ـ : « ما تعنيت مذ أسلمت ولا تمنيت ، .... منذ بايعت رسول الله ﷺ » ، وهذا مختص بالأقوياء الذين يأمنون التسميع ويُقتدى بأمثالهم ، وعلى الجملة فالأولى بالمرء أن لا يأتى من أقواله وأعماله الظاهرة والباطنة إلا بما فيه جلب مصلحة عاجلة أو آجلة ، أو درء مفسدة عاجلة أو آجلة ، مع الاقتصاد المتوسط بين الغلو والتقصير ...) [1] .

الثالث : ما قاله ابن القيم بعد حديثه عن العلم ، واستدلاله لجواز إخبار المرء بما عنده منه : (... ومنه قول يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ ﴿ **اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم** ﴾ فمن أخبر عن نفسه بمثل ذلك ليكثر به ما يحبه الله ورسوله من الخير فهو

---

(١) قواعد الأحكام ٢ / ١٧٨ .

محمود ، وهذا غير ما أخبر بذلك ليتكثر به عند الناس ويتعظم ، وهذا ما يجازيه الله بمقت الناس له وصغره في عيونهم ، والأول يكثره في قلوبهم وعيونهم ، وإنما الأعمال بالنيات ، وكذلك إذ أثنى الرجل علي نفسه ليخلص بذلك من مظلمة وشر ، أو ليستوفى بذلك حقاً له يحتاج فيه إلى التعريف بحاله ، أو ليقطع عنه أصماع السفلة فيه ، أو عند خِطبته إلى من لا يعرف حاله ...) [١] .

★ الأبواب العشرة فى سور مدينة الذات ★

● الأحوال التى يجوز فيها مدح النفس فى الجماعة المسلمة ما يلى :

(١) الترشيح الذاتى لمهمة دعوية ، ولمصلحة شرعية أو ولاية دينية :

ويتم ذلك دون إلزام الإمام أو الرئيس بالاقترح ، وإنما يكون غرض المسلم فى ذلك إحقاق الحق ، ويفعله لمصلحة المسلمين ، وعزة الإسلام ، لذلك اعتبر الرازى مقولة يوسف ـ عليه السلام ـ من مبررات المدح المشروع ، فقال :(إن السعي فى إيصال النفع إلي المستحقين ، ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن فى العقول) [٢]

(..... فرأى أن ذلك فرض متعين عليه فإن لم يكن هناك غيره ، وهذا الحكم اليوم ، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق فى القضاء أو

---

(١) مفتاح دار السعادة / ١٣٩ . (٢) تفسير الرازى ١٨ / ١٦١ .

الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه ، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك ، ويخبر بصفاته التي يستحقها بها من العلم والكفاية وغير ذلك)[1] .

ويتضح من هذه النصوص ترجيح مدح النفس عندما يرى الإنسان نفسه صالحاً لولاية دينية لا يجد غيره أصلح منه لها ، وهذا دليل الإيجابية ، وعلى هذا فعلى الداعية أن لا يبرر سلبيته أحياناً بالتقوى أو التواضع ، وعليه بالتصدى لإظهار نفسه للمهمات الإسلامية ، أو الانتداب لعمل ، أو الاتصال بشخص ، وكذلك فى أى ولاية مؤقتة كرئاسة مؤتمر ، أو مسؤولية تفاوض ، وغير ذلك مما يقاس عليه ، على أن يتحدد المدح وأن يكون أمام من لا يعرفوه ، إمّا لحداثتهم ، أو مجيئهم من منطقة أخرى ، وغنى عن التذكير أن وصف الداعية لذاته لا يلزم الأمير بشيء .

(٢) إظهار الحق وشكر نعمة الله تعالى :

وهذا مظهر من تطبيق قوله تعالى ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدّث** ﴾ والداعية باعتباره مؤمناً عليه شكر المنعم بالتحديث بنعمته عز وجل .

(٣) الدفاع عن النفس :

ومثله الاضطرار لذكر الفضل إذا خلا من البغي والاستطالة ، وخصوصاً عند تعرض المسلم لنوع من الحسد والمماراة ، ومحاولة النيل

---

(١) تفسير القرطبي ٩ / ٢١٦ .

منه ، وتحطيم جهوده ، كما قال سعد ـ رضي الله عنه : ـ

(إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله ، ورأيتنا نغزو ، وما لنا من طعام إلا ورق الحَبلة ، وهذا السّمُر ، وإن أحدنا ليضع كما تضع الشاة ، ماله خِلط ، ثم أصبحت بنو أسد تعزرني على الإسلام ..) (١).

ويستشهد بهذا الأثر في جواز المدح عند وجود المصلحتين السابقتين ، كما سبق نظير ذلك في دفاع عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ بمدح نفسه أمام جمع من الصحابة ، قال ابن حجر رحمه الله نقلاً عن ابن الجوزى ـ رحمه الله ـ قوله :

(إن قيل : كيف ساغ لسعد أن يمدح نفسه ، ومن شأن المؤمن ترك ذلك لثبوت النهى عنه ؟ ، فالجواب : أن ذلك مساغ له لما عيّره الجهال بأنه لا يحسن الصلاة ، فاضطر إلى ذكر فضله ، والمدحة إذا خلت من البغى والاستطالة وكان مقصود قائلها إظهار الحق وشكر نعمة الله لم يكره ، كما قال القائل : إنى لحافظ لكتاب الله عالم بتفسيره وبالفقة بالدين ، قاصداً إظهار الشكر ،أو تعريف ما عنده ليستفاد ، ولو لم يقل ذلك لم يعلم حاله) (٢) .

وقد سار السلف على هذا المنوال في دفع التهم عن أنفسهم ، وفى مجال الدعوة والعمل في سبيل الله ، ورد الشبه والأقاويل لما فيه

---

(١) رواه البخارى .

(٢) فتح البارى ١١ / ٢٩١ .

مصلحة العمل الإسلامى ، فقد يقود تجريح الشخص إلى ظلمه وحربه ، وبالتالى إلى إهمال أفكاره وأقواله ، وقد حصل لابن تيمية ـ رحمه الله ـ ذلك ، فاجتمع بالناس وقال للأمير والحاضرين ، بعدما سمع مقالة السوء والفتنة عليه :

(أنا أعلم أن أقواماً كذبوا عليّ ، وقالوا للسلطان أشياء ، وتكلمت بكلام احتجت إليه ، مثل أن قلت : من قام بالإسلام أوقات الحاجة غيرى ؟ ومن الذي أوضح دلائله وبيّنه ؟ وجاهد أعداءه ، وأقامه لما مال ؟ حين تخلى عنه كل أحد ، ولا أحد ينطق بحجته عنه ، وقمت مظهراً لحجته مجاهداً عنه مرغباً فيه؟ فإذا كان هؤلاء يطمعون فى الكلام فيّ فكيف يصنعون بغيرى ؟ .....) (١) .

وبعض النقد والتجريح يجرى فى وسط الجماعة المسلمة ، وإنكار حصوله نوع من التكلف والمثالية ، فقد يحصل النقد بين مجاميع مختلفة أو بين بضع أفراد ، ومثل هذه الأمور بعضها ناتج عن ضرورات النفس البشرية ، وبعضها ينتج عن بعض الظروف والملابسات الوقتية ، وبعضها بسبب حدة الطبع أو متاعب العمل الدعوى ، وبعضها الآخر يكون ناتجاً عن عدم فهم البعض أو معرفتهم للبعض الآخر ، ولا ننكر أن بعض الأمور تنتج عن حسد الأقران ، أو قلة التقوى ، أو عن الهوى والتسرع ، وأياً كان الأمر فإن المعتدى عليه بباطل ظاهر ، أو تجريح

---

(١) فتاوى ابن تيمية ٣ / ١٦٣ .

واضح ، يجوز له الرد بالمعروف وإظهار محاسن نفسه ، وكذلك إذا تعرض بعض القادة أو المربين لتجريح الضعاف فى الصف ، والمتطلعين إلى المراكز، أو من بعض المرجفين ، أو أصحاب الحماسة المتهورة ، فقد يضطر هؤلاء أمام ضغط النقد الحاد ، وحرصاً على وحدة الجماعة وتماسك الصف ، إلى إبراز صفاتهم ، وذكر مميزاتهم ، كى يظهر فضلهم ، وتبدو محاسنهم أما م بقية أفراد الجماعة .

(٤) التعريف:

وهو أن يضطر المسلم إلى التعريف بنفسه ، وذكر بعض خصائصه التى تؤهله لمهمة ما ، وذلك عند من لا يعرفه ، أو عند من ليس له علم سابق ، ومن أمثلة ذلك ، ما قد يعرف به الإنسان فضله في تبيان علم ، أو تأليف كتاب، وفى ذلك من روائع البيان ما كتبه السيوطى فى التعريف بفن الأشباه والنظائر ، وجهده فى جمعه ، فكتب له مقدمة رائعة ، نقتبس منها مايلى :

(إن هذا الفن لا يُدرك بالتمنى ، ولا يُنال بسوف ولعلّ ولو أنى ، ولا يبلغه إلا من كشف عن ساعد الجد وشمّر ، واعتزل أهله وشدّ المئزر ، وخاض البحار وخالط العجاج ، ولازم الترداد إلى الأبواب فى الليل الداج ، يدأب فى التكرار والمطالعة بكرة وأصيلاً
للتأليف بياتاً وتبيداً ، ليس له همة إلا معضلة يحلها ، أو مستعصية عز
على القاصرين فيرتقى إليها ويحلها ، يُرد عليه ويَرد ، وإذا عذله اهل

لا يصد ، قد ضرب مع الأقدمين بسهم ، والغَمْرُ يضرب في حديد بارد ، وحلق على الفضائل واقتنص الشوارد .

وليس على الله بمستنكرٍ   أن يجمع العالم في واحد

يقتحم المهامة المهولة الشاقة ، ويفتح الأبواب المرتجة إذا قال الغبى لا طاقة ، إن بدت له شاردة ردها إلي جوف الفرا ، أو شردت عنه نادرة اقتنصها ولو أنها في جوف السما ، له نقد يميّز بين الهباب والهباء ، ونظر يحكم إذا اختلف الآراء بفصل القضاء ، لا يأتي عليه تمويه الأغبياء ، وفهم ثاقب لو أن المسألة من خلف جبل قاف لخرقه حتى يصل إليها من وراء ، على أن ذلك ليس منه كسب العبد ، وإنما هو فضل الله يأتيه من يشاء) .

وهذا الأمر من أجل التعريف بفن جديد ، قد أبدع فيه .

ثم يعرج على كتابه فيقول :

(وأنت إذا تأملت كتابى هذا علمت أنه نخبة عمر ، وزبدة دهر ، حوى على المباحث المهمات ، وأعان على نزول الملمات ، وأنار مشكلات المسائل المدلهمات ، فإني عمدت فيه إلى مقفلات ففتحتها ، ومعضلات فنقحتها ، ومطولات فلخصتها ، وغرائب قلّ أن توجد منصوصة فنصصتها) .

ونرى أنه قد أثنى على نفسه مرتين أولهما لأجل الفن ، والأخرى

لأجل كتابه نفسه ، ومثل السيوطى ما فعله قبله الإمام تاج الدين ابن السبكى (المتوفى ٧٧١ هـ) ، حيث قال عن فن (الأشباه والنظائر) أيضاً :

(اعلم أن أهم ما عنى به الفقيه ... القيام بالقواعد واختلاف المآخذ واجتماع الشوارد ، وذلك أمر شديد لا ينال بالهوينى ، ولا يدرك شأوه إلا من تصدى بأعمال قلب وقالب ...) .

ثم يستطرد بالحديث عن كتابه الذى حرره من كتاب ابن الوكيل فيقول :

(... فعمدت إلى هذا الكتاب فاحتلبت زُبَدَهُ ، وقذفت من بحر فوائده زَبَدَه ، وجمعت عليه من الأشباه نظائر ، فالأرواح جنود مجندة ، حررته فى الدجى بشهادة النجوم ، ولاقيت عسره بهمة نبذت سهيلاً بالعراء وهو مذموم ، وجلوت من الأشباه عروس شاب لا شبيه لها مظنون ولا معلوم ...) (١) .

وقال إمام الحرمين يصف كتابه (النظامى) بقوله :

(قد تقدم الكتاب ، محتوياً على العجب العجاب ، ومنطوياً على لب الألباب ، أحدوثة على كر العصر ، وغرة على جبهة الدهر ، يعشو

(١) مقدمة الأشباه والنظائر لابن السبكى ، ولا يزال الكتاب مخطوطاً لم يطبع بعد .

إلى منارها المرتبك فى الشبهات ، ويلوذ بآثارها المنسلك فى مثار المتاهات ، ويقتدى بنجومها المترقى فى مهاوى الورطات ، وينخنس برجومها المتعثر فى أذيال الضلالات ....) (١) .

والدليل على صحة هذا المنهج عند المؤلفين ما قاله القرطبى استناداً إلى مقولة يوسف ـ عليه السلام ـ :

(إنما قال ذلك عند من لا يعرفه ، فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستثنى من قوله تعالى ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم** ﴾ ...) (٢) .

وهناك العشرات من هذه الأمثلة نراها فى مقدمات كتب بعض السلف والتابعين ، وإن كان التواضع أولى ، ولكن يستحسن الثناء على الفن إذا كان فريداً فى بابه ، ويقود المدح إلى اطلاع الناس عليه ، وكذلك الحكم بالنسبة للثناء على الكتب أو المحاضرات والدروس ، مع ضرورة مراعاة الكاتب أو المربى ضوابط المدح التى سيأتى ذكرها ـ فيما بعد ـ .

ومن التعريف الذى لا بد منه للداعية أمام إخوانه أن يذكر قابليته في أمرٍ ما ، كأن يقول العبارات التالية التي يمكن القياس عليها :

★★ أنا أعلم الناس بالفن الفلانى ، لأننى درسته كثيراً ، أو

---

(١) مقدمة كتاب (الغياثى) / ٧ .

(٢) تفسير القرطبي ٩ / ٢١٦ .

أعددت رسالة جامعية فيه .

★★ أنا أعلم الناس بظروف البلد الفلاني لأنني عشت فيه سنوات ، وزرته مرات عديدة ، واختلطت بأهله وعشائره ، ورجاله وساسته .

★★ أنا أعلم الناس بما يجرى بالمنطقة الفلانية لأننى من أهلها ، أو تزوجت منها ، أو خالطت أهلها بكثرة .

★★ أنا أعلم الأخوة بفلان من الناس ، لأني خالطته بكثرة ، أو أنه من أقاربي وأهل بلدى .

★★ أنا أعلم الأخوة بالحدث الفلاني لأنني شاركت فيه ، أو راقبته ودرسته عن قرب .

★★ أنا خير من يستشار في أمر الجماعة الفلانية ، لأنني كنت عضواً فيها .

وهكذا أمور الدعوة المختلفة ، سواءً كانت فكرية ، أو تربوية ، أو سياسية أو اجتماعية ، ممايستحسن للأخ الداعية أن يبين كفاءته فيها ومعرفته بأمورها . .

(٥) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

وهذا الأمر وإن تحدد في استثناءات العلماء ، إلا أنه أمر عام يشمل كل الأمور الأخرى ، ولا بأس بذكر بعض المسائل التي قد تحصل

ـعلى وجه الخصوص ـ وسط الجماعة المسلمة ، ومنها :

★★ أن يذكر الداعية معرفته وخبرته ، من أجل التحذير من جماعة مشبوهة أو فرد ، يظهر صلاحه ودينه .

★★ تعريف الداعية بقابليته العملية فى الفنون الصناعية ، والرياضية ، والمهارات البدنية .

★★ تعريف الداعية بنفسه ومدحها لأجل القيام بعملية التوجيه والتربية والإعداد والتعليم .

★★ ما يذكره الداعية فى أثر تصرفاته الحكيمة ، أو طريقته الجيدة فى الدعوة ، وأثرها فى الناس والدعاة ، وغيرهم .

★★ ما يذكره الداعية من تجاربه الناجحة ، وممارساته ، سواءً فى المدارس أو القبائل ، وقدراته السياسية وحنكته فى التعامل مع رجال الأحزاب والهيئات ، وذكر دهائه وذكائه فى التخلص من المآزق والظروف .

★★ إبراز الداعية لشهادته وكفاءته أمام عموم الناس الذين يتأثرون بأصحاب الشهادات والألقاب، من أجل التوطئة للسماع الجيد والتأثر بالحديث .

ويقاس على كل ما ذكر كل أمر يساعد على إتمام الأمر

بالمعروف وفق مصالح الشريعة ..

(٦) الانتصاب كقدوة :

قد يرى المربى فتوراً من الأعضاء ، أو كسلاً عند الأفراد ، أو بعض مظاهر قصور الهمة ، فيضطر إلى إظهار بعض محاسنه ، وكشف بعض تصرفاته حتى يظهر كقدوة للآخرين في البذل والعمل والتضحية وقد يحتاج لمثل هذا الأمر فى صفوف الجماعة ، فعند تشكى الإخوان من قلة الوقت مثلاً ، يضطر مسؤولهم إلى الحديث عن نفسه وكشف جدول أوقاته وأعماله ، كى ينتصب لهم قدوة فى بذل الوقت ، أو قد يرى تقصيراً فى البذل المادى فيضطر إلى ذكر بعض تبرعاته واشتراكاته ومصاريفه ، كى ينتصب قدوة فى البذل المادى ، وقد يلجأ إلى ذكر بعض قراءاته تشجيعاً لإخوانه على القراءة والمطالعة ، وقد يلجأ إلى ذكر مواقفه وثباته فى المحن أو صبره تثبيتاً لإخوانه ، وهكذا ، مما يقاس عليه ، ومداره على المصلحة العامة ، والأمر مقيد بضوابطه ، وقمة الضوابط أن تكون النية خالصة لوجهه تعالى .

****

(٧) الإصلاح بين الناس :

وكذلك فض المنازعات ، وإصلاح ذات البين، وأشباه ذلك وما قد يكون أخص من ذلك وسط الجماعة المسلمة كالإصلاح بين مجموعتين إسلاميتين أو إصلاح ذات البين بين داعيتين ، وكل ذلك يحتاج فيه الداعية المصلح إلى مدح نفسه بالمعروف ، بل قد يستحسن له ذلك ، كذكر مناقبه ، وقدمه في الدعوة ، وأنه فوق مصالح الأفراد ، ولم يجرب عليه أحد كذباً ، وحسن بلائه فى الدعوة ، وقد يطنب فى ذكر عدله السابق في المواقف ، وعدم اشتراكه فى الفتن ، أو عدم تطاوله في النقد والتجريح ، وعفة لسانه ، وكل الخصائص التى تؤهله للإصلاح بين المتنازعين ، وفض خصوماتهم .

(٨) الوعظ والتذكير :

فى حالة وعظ الإنسان لغيره فى أمر من أمور الخير ، يحتاج إلى رواية بعض الحكايات والقصص التى تبين عواقب الأمور الحسنة ، كعاقبة الزهد والتوكل والصبر والعبادة ، وكل التزام بمعروف ، كما قد يحتاج ـ من جهه أخرى ـ ذكر نتائج الأعمال السيئة ، ومآلها .

وفى أثناء ذكر عاقبة أعمال الخير قد يعرج على ذكر قصص حصلت له ، وروايات لأخبار خاصة ، وحكايات كان من ممارسيها ، ولا يخفى ما قد يجره الحديث إلى مدح نفسه وذكر بعض فضائله ، إذ أن الحكاية التى يرويها صاحبها أبلغ بالموعظة ممن تروى عن الغير ،

ولذلك فإن مثل هذا المدح ، والتعريج على ذكر فضائل النفس لا بأس فيه إذا أمن صاحبه على نفسه العجب والغرور .

(٩) مدح النفس أمام الأعداء :

قياساً على ما ورد في النصوص ، من إشهار القائد نفسه ، والتفاخر ، وإظهار الشجاعة ، ويظهر من هذا الدليل إمكانية القياس عليه في مدح الداعية لنفسه في المجالات العامة ، كالاشتراك في مجالس نيابية ، أو جمعيات عامة ، أو شركات ، فيضطر الداعية لإظهار نفسه والفوز بمركز لمصلحة الدعوة ، فيبين ما يملكه من تجربة ، وما حصل عليه من شهادات ، وما يتمتع به من حنكة وخبرة وكفاءة في ذلك المجال ، مما يمكن أن يكون عبر دعاية انتخابية ، لمجلس نيابي أو جمعية أو ناد ، وكل ما يتعلق بالممارسات السياسية ، خصوصاً وأن العلمانيين يتخذون من مسألة الدعاية الانتخابية أقوى الوسائل الإعلامية لترويج الباطل ، وبالتالي يشكل اتخاذ الوسائل المكافئة تعضيداً لهذا الغرض الذي ذكرناه والمتضمن بالضرورة مدح الداعية لشخصه ، وإبراز مواطن قوتها بالحق والإنصاف ، وقد ورد في الصحيح ثناء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على نفسه في الحروب إخافة للعدو ، وتثبيتاً للمسلمين ، وقد ذكر هذا الاستنباط في نص للإمام النووي سبق ذكره .

(١٠) التأديب :

وهذا الغرض ظاهره المدح لأغراض تأديب الشخص لأولاده ، أو المعلم لتلاميذه ، ولكن مثل هذا المعنى لا يستعمل فى الإطار الدعوى ، ويمكن الاستعاضة عنه بمدلول التوجيه مع بقاء المعنى الأصلى كتأديب الداعية لأولاده ، ولطلابه إن كان معلماً أو مدرساً ، ومفهوم التوجيه بتضمن كلام المربى لإخوانه ، كقوله لغيره : (أنا أعلم منك بخطورة المسألة الفلانية ، فلا تتوجه نحوها) أو (إن خبرتى بالقضية كذا ، وأنصحك فيها بكذا) أو قوله : (رغم شجاعتى أو عقلى ، فقد فشلت فى تحقيق المسألة الفلانية) وأمثال ذلك ، مع ضرورة الحذر الشديد فى هذا الباب ، وضرورة الأخذ الحازم بالضوابط الأخرى ، كتقدير المصلحة ، ودفع المفسدة ، ومراعاة ظروف الأفراد واستعداداتهم لسماع مثل هذا الكلام .

★ ضوابط مدح الذات ★

ومن خلال النصوص يستطيع الإنسان استخلاص الضوابط الشرعية لمدح الذات ، والتى يجمعها كلها ضابط المصلحة الشرعية ، والمصلحة (هى المنفعة التى قصدها الشارع لعباده من حفظ دينهم ونفوسهم وعقولهم ، ونسلهم وأموالهم ، طبق ترتيب معين فيما بينها) والمنفعة : هي اللذة وما كان وسيلة إليها ، أودفع الألم وما كان وسيلة إليه ورغم أن مبحث المصلحة كبير ـ وليس مجال بحثه هنا ـ إلا أنه

يمكن استدلال بعض الضوابط التى تصلح أن تكون محددة لمجال مدح الذات :

(١) أن تدعو الحاجة لذلك ، وكذلك الضرورة :

إذ أن الأخذ بالضروريات والحاجيات من مقاصد الشريعة ، ولما كان المدح الخاص استثناءً من أصل ، فلا يلجأ إليه إلا عند الضرورة ، أو لوجود الحاجة ، وكل من الحاجة والضرورة تقدر بقدرها ، ويجب أن تخدم مصالح الشريعة فى حفظ الدين والنفس والمال باعتبارها من مقاصد الشريعة العامة ، والقول بمدح الذات عند الحاجة أو الضرورة يجب أن لا تقود الشخص إلى استغلال أى موقف بهذه الحجة ، أو تبرير المدح بتلك الحاجة أو هذه الضرورة ، فإذا ما دعى إلى أمر فلا يبادر لمدح نفسه حتى يستفرغ جهده فى النظر إلى قابلية الآخرين ، وإذا سئل عن أحد جوانب الخير فلا يبادر إلى وصف نفسه به قبل أن ينصف غيره ، وإذا ما سئل عن الأفضل أو الأحسن فى مسألة فلا يسارع إلى المدح دون أن يجول خاطره فى تمثل صور الغير ، ولا يعتبر السؤال عن صفة ما يقوم مقام الضرورة فيبادر إلى ادعاء الصفة إلى نفسه ـ حتى ولو كانت صحيحة ـ إذا ما كانت تندفع بإجابة غيره ، وهكذا ردّ معاوية ـ رضى الله عنه ـ صفة السيادة للقوم على من ادّعاها.

(قال معاوية ـ رضي الله عنه ـ لرجل : مَنْ سيد قومك ؟ قال : أنا ، قال : لو كنت كذلك لم تقل) [1] .

ومن متممات هذا الشرط أن لا يغفل مادح نفسه عن رد كل الفضل فيما حازه من خير إلى الله تعالى ، وأنه سبحانه هو المنعم عليه بذلك ، ولا حول ولا قوة إلا به ، وأنه كان جاهلاً فعلمه الله ، وعاجزاً فمكنه الله ، وهو عز وجل الواهب والمتفضل والميسّر ، ومنه الهداية وله المنة ، ويظل لسان المادح نفسه رطباً بمثل هذه المعاني والألفاظ .

(٢) أن لا يكون في الأمر تجاوزاً للحدود الشرعية :

كأن يكون في المدح الشخصي عبارات كاذبة ، أو تدليس ، أو شتم ، أو نوع من العبارات الغليظة التي يمجُّها العرف ، وكذلك أن لا يختلط فيها شيء من الغلظة والغضب ، أو أن يمتزج معها عبارات غير شرعية كادعاء الغيب ، والاطلاع على القلوب ، أو أن يكون الفخر بما لا يحبه الله عز وجل .

(٣) أن يخلو المدح من البغي والاستطالة :

أي أن يمتزج مع مدح الشخص لنفسه شيء من الانتقاص من الآخرين ، أو الاستعلاء عليهم ، وأن يكون مع المدح تجريح وتضعيف لغيره ، وكذلك يجب أن يخلو المدح من اختلاطه ـ ولو بالإيماء ـ بنوع من الغيبة والنميمة ، وكل ما يشابه ذلك من آفات اللسان المعروفة .

---

(١) عيون الأخبار ١ / ٢٧٥ .

(٤) أن لا يكون المدح مبالغاً فيه :

أى يكون وسطاً بين الاختصار المخل الذى يظهر المدح ولا يؤدى المصلحة منه ، وقد يكون مثل هذا الاختصار بسبب خوفه الملامة أو الحياء ، وكذلك لا يكون مبالغاً فيه ، إذ أن من قواعد الشريعة أن الضرورة تقدر بقدرها ، ومدح الذات من الضرورة فلا يتعدى بالمدح الحد المطلوب لأداء المصلحة ، وفى نص العز بن عبد السلام التوضيح لهذا الأمر .

(٥) أن لا يقود المدح إلى مفسدة :

وذلك عند جهل الآخرين بالمصلحة ، وعندما يكون مدح النفس مثاراً للسخرية والتندر ، أو لا يضعه الناس موضعه الملائم ، فيكون سكوت الداعية خطيباً كان أو متحدثاً ، محاضراً كان أو كاتباً ، أولى من الحديث عن نفسه حتى ولو رأى مصلحة فى ذلك ، لأن من قواعد الشريعة الغراء أن (دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح) .

ويقع ضمن هذا الأمر أيضاً عدم تفويت مصلحة أكبر ، فقد يكون فى مدح النفس مصلحة ، ولكنه قد يفوت مصلحة أكبر من ذلك ، ويقع ضمن الأمر كذلك اختيار الظروف المناسبة لمدح الذات كالزمان والمكان والأشخاص ، فالمدح فى مكان معين قد يجلب مصلحة ، ولكنه يقود إلى مفسدة فى مكان آخر ، فمدح القائد لنفسه أمام جنوده

وأقرانه ممن يعرفون بعض فضائله ليس كمدح نفسه أمام أتباع ممن يضمرون له البغضاء ، والمدح في وقت معين يكون مصلحة ، وفى وقت آخر يقود إلى مفسدة ، فالمدح عند تفاخر الناس فيما بينهم وأوقات الفتن ، ليس كالمدح عند صفاء القلوب ، وتجاوب النفوس ، وكذلك يراعى الداعية ظروف الأشخاص والملابسات ، فالتجمعات التى فيها حماسة للجهاد والقتال لا يمدح الشخص نفسه بحسن المقالات وتأليف الكتب ، وظروف التشاور لانتخاب شخص لمهمة ، لا يمدح المرء نفسه فى مجالات أخرى ، وهكذا مما يقدره صاحب العقل الواعى ، والقلب اليقظ .

(٦) أن يكون بالأسلوب المتواضع :

حيث يرافقه اللين والمحبة ، فقد يكون مدح النفس مقبولاً من الآخرين ، ويقدرون المصلحة فى قوله ، ولكن قد يرافقه شيء من الشدة ما يجعله أقرب إلى الغضب والتهور ، وقد يخالطه من نقد الآخرين ما يحوله إلى نوع من الغرور والعجب ، وقد يمتزج به من الألفاظ ما ينتقل به إلى احتقار الآخرين ، وبخس الناس أشياءهم ، بل قد يكون التقعر فى الكلام ، والتكلف فى الجلسة والهيئة ما يوحى به كنوع من التكبر والاستعلاء ، بل مجرد النبرة تجعل المقابل يقبل أو يرفض .

(٧) أن لا ينزعج من رد المدح :

إذ أن الداعية ـ أو المسلم عموماً ـ قد يمدح نفسه بما يظنه وفق الضوابط الشرعية المذكورة ، ويبرر له الشيطان تصرفه هذا ، والإنسان ـ في العادة ـ لا يستطيع أن يرى كل عيوبه ، فقد يُرد المدح علي صاحبه ، فإذا كان الداعية متحرياً الصدق والنية الصالحة في مدحه ، فلا يضيره رد المدح عليه ، بل عليه أن يفرح بذلك ، إذ أنه نوع من إهداء العيوب ، وانزعاجه لرد المدح ، أو غضبه لنفسه قرينة قوية على عدم صدقه في دعواه في توخيه المصلحة من المدح .

(٨) أن يكون مادحاً لغيره من أصحاب الفضل المكافئ :

إذ أن المسلم الصادق ـ والمفروض بالداعية ذلك ـ توخي النية الصالحة وصواب العمل في مدحه لذاته ،مما يوجب عليه أن يمدح أيضا توخياً للإنصاف ، من يشاركه في الفضل المكافئ من إخوانه ، فهذا أدعى إلى العدل والإحسان ، ودليل الأخوة والمروءة ، وقرينة على صدق التوجه ، وخلوص النية .

★★ فإذا مدح نفسه لرد تهمة ، فعليه مدح نظرائه ممن وقعت عليهم نفس التهمة .

★★ وإذا مدح نفسه لمصلحة دعوته في علم أو عمل ، فعليه مدح من يوازيه في ذلك .

★★ وإذا مدح لتعريف أو أمر بمعروف ، فالإنصاف يقتضى مدح من شاكله في الأمر .

★★ وإذا رشح نفسه لمهمة أو ولاية ، فما يضيره ذكره غيره من إخوانه من أشباهه .

.. وهكذا يُقاس على الأمر بقية الوجوه ومقاصد المدح.

(٩) الموازنـــة :

ونعنى هنا الموازنة بين المدح الجائز ، وبين التواضع الممدوح ، وهذا ما يحدده الداعية لنفسه ، وعليه أن يراقب قلبه دائماً ، ولا يقع تحت طائلة التبرير ، ويستغل جواز المدح للاستمرار والمبالغة فيه ، حتى يخضع لتلبيس الشيطان عليه ، فيتحول المدح ـ بمرور الأيام واستسهاله ـ إلى الغرور والعجب .

وقد وقع للعلماء والسلف أمثال ذلك فى قصص كثيرة ، نكتفى منها ما وقع للماوردى ـ شيخ الشافعية وقاضى القضاة فى زمانه ـ حيث صنف فى البيوع كتاباً أجهد فيه نفسه ، وكدّ خاطره ، فأعجب به واغتر ، فجاءه أعرابيان من البادية روى قصتهم :

(فسألانى عن بيع عقداه فى البادية ، على شروط تضمنت أربعة مسائل ، لم أعرف لواحدة منهن جواباً ، فأطرقت مفكراً وبحالى وحالها معتبراً .... فكان ذلك زاجر نصيحة ، ونذير عظة ، تذلل بهما

قيـاد النفس ، وانخـفض لهـما جناح العـجب توفـيقـا منحتـه ورشداً أوتيتُه ، وحقّ على مـن ترك العـجب بما يحـسن ، أن يدع التكلف لما لا يحسن ...) [1] .

فلينظر الأخ الداعية قـصة الماوردى ، وكيف استفـاد من شعوره ، وما حـصل له ، فاعـتبـره زاجر نصيـحة ، ومـوعظة من الله له ، ودرس وفّقـه الله إليه ، حـتى يتـرك العجب والتكلـف ، وأن لا يغتـر بنفسـه ، ويبـالغ فى الثناء عليهـا ، فرب مـوهبة أعطـاها الله لعبـد ، تنسل منه فى لحظة ، وتؤخذ منه بيـسر ،ورب صفة امـتدح الإنسان بها نفـسه ونسى فـضل الله تنقلب عليه [illegible] وتحصف فيـه دله .. بل قـد تـنقلب إلى عكسـها ، وقـانا الله شـر مصـارع النفس ، ومـسـاقط الهوي ، وآفـات القلوب .

(١٠) أن يأمن الإنسان على نفسه :

وهذا مما يخص المادح نفسـه ، فلكل شخص على نفسه بـصيره ، ولهذا يجوز المدح لمن يرى من نفسه قـوة ، ولا يخشى التسميع ، أو لا يغتر بتأييد آخرين لمدحه ، أما من يخشى علي نفسه فيكره له ذلك ، بل قد يصل إلى مرحلة التحريم .

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردى / ٨٢ .

وقياساً على هذا ، يفضل أن يكون المدح عند الحاجة إليه في أضيق الظروف ، وأقل الأعداد ، وأمام الأقران والأفاضل، أما مدح النفس أمام جماهير الدعاة وعموم الأفراد ، وفي المجالات العامة ، وما قد يجره ذلك إلى المزيد من المديح ، والتطاول في الثناء ، وتعاقب الأشخاص فرداً بعد فرد ، بتدبيج العبارات ، وترتيب الثناء ، فمفسدته ظاهره ، ونتائجه بارزه ، إذ يسقط في ذلك أقوياء الرجال ، والبعد عن مواطن التهم أولى ، وعن أجواء الفتنة وقصم الظهور أجدر .

★ احتراز يقيك الاستدراج ★

● وبعد معرفة كراهية مدح النفس ، والضوابط التي [illegible] بعض الحالات فما موقف الممدوح عندما يمدح ؟ وخصوصاً أن قابل المدح ومَن يُظهر الفَرح به يكون كمادح نفسه ، وذلك معلوم بالفطرة ، ويدركه العقلاء ، إذ قيل :

(إن قابل المدح كمادح نفسه ، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذى يحمله على رده ، فإن الراد له ممدوح ، والقابل له معيب) [1] .

---

(١) عيون الأخبار ٣ / ٢٧٦ .

والجواب : إنّ قبول المدح ـ وخصوصاً إذا كان متكلفا ـ كمدح النفس المذموم . وقد أثبتت تجارب الحياة الدعوية أن المكثر من مدح داعية قديم بتكلف مبالغ فيه غالباً ما ينقلب إلى الضد فى العداوة ، لأن مدحه لم يكن خالصاً لله تعالى ، بل وقد نشاهد أحياناً اثنين يكثر أحدهما من مدح الآخر ، ولا يلبث أن يتحول جميل المدح بينهما إلى ذميم القول ، ويكشف أحدهما عيوب الآخر ، ويكشف أستاره ، ولقد أدرك السلف ذلك ، فعبر عن هذه الحقيقة على بن الحسين ـ رضي الله عنه ـ قائلاً :

(لا يقول رجل فى رجل من الخير مالا يعلم ، ألا أوشك أن يقول فيه من الشر مالا يعلم ، ولا يصطحب اثنان على غير طاعة الله إلا أوشكا أن يفترقا على غير طاعة الله) .

● ولهذا فليحذر الدعاة من المدح الكاذب ، والثناء الزائف ، فإنه كمدح النفس سواء بسواء .

(وإذا سمعت الرجل يقول فيك من الخير ما ليس فيك ، فلا تأمن أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك) (١) .

(من مَدَحكَ بما ليس فيك من الجميل وهو راض عنك ، ذمّك بما ليس فيك من القبيح ، وهو ساخط عليك) (٢) .

(١) عيون الأخبار ٣ / ٢٧٥ .

(٢) لباب الآداب ، لأسامة بن منقذ / ٤٥٢ .

وعلى الممـدوح أن لايقبل مدح المادح إلا وفق نفـس الضوابط ، وعند وجود نفس الظروف السابقة والمحققة للمصلحة .

والمسـألة سـواء إذا كان الممـدوح يسـتـحق المدح أو أنه يمدح بما ليس فيه . .

● إن قبول المدح والالتذاذ به ، وميل الطبع إليه دليل شعور النفس بالكمال ، وابتعادها عن النقص ، أو أن قلب المادح مملوك للممدوح ، وملك القلوب مـحبـوب والشـعـور بحـصـوله لذيذ ، أو أنهـا سـبب لاصطياد القلوب ، أو أن المدح دليل حشـمة الممدوح وقدرته ، وكل ذلك يؤدى بدرجـة تنقص أو تزيد إلى قطع عنق الممـدوح ، وشعـوره بالعجب والفخر إلا من عصم الله تعالى .

وعلى الداعيـة والمربى - والأمـيـر خـصـوصـاً - أن يسـد أفـواه المدّاحين ، وأقل درجـاته أن يستـوى عنده المدح والذم ، ويمتـعض من المدح المتكلف ، ولا يصـيبه الغم من الذم ، ولا يجـد فى نفسـه نشاطاً لإعانة أو توثيق المادح ، أو تضـعيفـاً للناقد والناصح ، كـما على المربى أن يستعلى عن كون زلة المادح أقل فى مـيزان الجرح والتعديل من زلة الذام ، وغيـر ذلك ، ومما يدرك بالعـقل الراجح والفطرة السليـمـة أن مدح المادح قد رجح شيئـاً فى نفس الممدوح لم يكن لولا النطق بهذا المدح.

(وعلى المـمـدوح أن يكون شـديد الاحـتـراز عن آفـة الـكبـر

والعجب ، وآفة الفتور ، ولا ينجو منه إلا بأن يعرف نفسه ويتأمل ما في خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فإنه يعرف من نفسه مالا يعرفه المادح ، ولوانكشفت له جميع أسراره وما يجري على خواطره لكف المادح .. وعليه أن يظهر كراهية المدح بإذلال المادح ...) (١) .

وإضافة إلى ما ذكر من عيوب مدح الذات ، فإن المعروف من فطر النفوس أن المدح يفتر الممدوح عن العمل ، مما يضيف سبباً جديداً في كراهيته .

(فإنه لا يأمن أن يحدث فيه المدح كبراً أو إعجاباً أو يكله على ما شهره به المادح فيفتر عن العمل ، لأن الذى يستمر فى العمل غالباً هو الذى يعد نفسه مقصراً) (٢) .

وتزداد الكراهية فى تقبل المدح إذا كان موجهاً للممدوح بذاته ، أو دون حضور غيره ، أما عند استماع الآخرين فيظل الأمر على أصل الكراهية مع استثناء ما ذكر من الظروف المصلحية ، كالمدح لغرض التولية الشرعية ، أو إسناد المهمة الدعوية ، أو الدفاع عن عرض الشخص الممدوح ، أو ما قد يتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما يتعلق بذلك من شهادات وحقوق ، وكذلك فى الأمور المترتبة على

---

(١) إحياء علوم الدين ٣ / ١٦١ .

(٢) فتح الباري ١٠ / ٤٧٨ .

الجرح والتعديل ، وفى ظروف المصلحة المترتبة على المديح من أجل الاقتداء بالممدوح فى أعمال البر والخير والجهاد ، وفى مسائل الإصلاح بين الناس ، وما قد يستشهد به لأغراض الوعظ والتذكير ، وكذلك يستحب المدح أمام الأعداء لإبداء قوة الممدوح وكفاءته ، مما فيه مصلحة ، وكذلك عند الاضطرار للتعريف ، فتعريف الغير خير من أن يعرف الإنسان بنفسه ، لأن لسان المرء عن ثناء نفسه قصير ، وتكليف غيره عند الحاجة إلى ذلك أدعى لدفع تهمة التفاخر والتعاظم عنه ، وغير ذلك من الأمور التى تقاس بما ورد ذكره .

● وعلى الداعية والمربى ، وهو يتخلص من آفات المدح لنفسه أو من غيره ، أن يتذكر معاتبة النفس دوماً .

واعلم ـ أيها الداعية ـ أن ألدّ أعدائك : نفسك التى بين جنبيك ، وقد أمرت بتزكيتها وتقويمها ، وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ، ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك ، والعبد الحق من عرف حقيقة نفسه ، وترك مدحها إلا لمصلحة ، ولم يستمع ثناء غيره .

(ولله در الشيخ أبى مدين حيث يقول : من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء ، وأحواله بعين الدعوي ، وأقواله بعين الافتراء ، وكلما عظم المطلوب فى قلبك ، صغرت نفسك عندك ، وتضاءلت القيمة التى تبذلها فى تحصيله ، وكلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة

العبـودية ، وعـرفت الله ، وعـرفت النفس : تبين لك أن مـا مـعك من البضـاعة لا يصلـح للملك الحق ولو جئت بعـمل الثقلين ... وإنما يقـبله بكرمه وجوده وتفضله ....) [1] .

★النيـة والفِراسة تـغربلان الجُزاف ★

● تبين مما سبق أن خلاصة الأمر في مدح الذات وتقويمها ، منصبّة فى جـملة قواعـد تبنى على النصوص وتتناسـب مع مقـاصد الشـريعة العامة ، وتدخل ضمن قاعدة : (إنما الأعمال بالنيات) .

١ ـ لا يجوز ذم النفس أمام الغير لأنه ليس من التواضع ، والأصل محاسبة النفس فى السر .

٢ ـ الأصل عدم جـواز مدح النفس إلا لضـرورة أو حاجـة تقود إلى مصلحة راجحة أو تدفع مفسدة .

٣ ـ يتناسب جـواز المدح مع مـقدار المصلحـة أو الحـاجة مما قـد يرتفع به إلى حد الواجب أو ينخفض إلى قدر المباح .

٤ ـ عند الاحـتيـاج لمدح الذات لابد من الالـتـزام بالضـوابط الشرعية المحققة للأهداف الشرعية .

٥ ـ مـا ينـطبق على مـدح الذات يـنطبق علي حب الاسـتـمـاع للإطراء والمديح من الغير .

---

(١) تهذيب مدارج السالكين / ١١٩ .

وعند استعمال هذه القواعد ـ بإدراك ووعى ـ تحقق المصالح داخل الجماعة المسلمة باستعمال الأساليب الشرعية الصحيحة ، وكذلك يظل الدعاة على المنهج الأصيل السامى في الأقوال والتصرفات والسلوك ، كما يتعود الدعاة على فهم المنهج الإسلامى فى النقد والتقويم وعدم المسارعة فى الاتهام والتجريح على ظواهر التصرفات ، وتظل مقاييس التحسين والتقبيح ، أو المدح والتجريح ، وفق المقاييس الشرعية ، لا الاعتبارات العرفية ، فتظل الأجواء صافية ، والنفوس سليمة ، ويدرأ عنها الكدر ، وتبتعد عنها الفتنة ، وكذلك تتحقق المصالح المبنية على الأساليب التى قد يكرهها الدعاة نتيجة عرف خاطئ ، أو خوفاً من الملامة والنقد ، وعند إدراكها من عموم الدعاة قادة وجنوداً يصحح العرف الخاطئ ، ويقل الخوف من النقد والملامة ، فتشاع الأساليب الصحيحة ، وتقدر المصالح بأقدارها .

ولابد من التنويه كذلك أن السماح بمدح الذات وفق ضوابطها لا يعنى أنه الأسلوب الوحيد ، أو الطريق المتفرد فى تقويم الأمراء للأتباع من خلاله ، فجواز الأخذ به من جانب لا يقود بالضرورة إلى وجود إلزام المستمع به ، فإن للقادة والدعاة من البصيرة الإيمانية ، والفراسة الإلهامية ، ومن رصيد الخبرة والتجارب ، ومن حنكة العقل والفطرة ما يجعلهم على قدر كبير من التمييز بين الصادق من المدح والمتكلف ، وبين إيضاح الحق والإطراء المتعسف ، وبين سكينة المنصف والتواضع المغلف ، وإذا كانت بعض الأمور يدركها

أذكياء البشر بالفطرة والحس ،والذكاء والموهبة ، فكيف إذا ما أضيفت إليها الفراسة ، فإن لحن القول غالباً ما يبدو ظاهراً لمن رزق التمييز ...

وفوق هذا فحتى لو كان القادة من الدعاة يصدقون كل ما يقال ، وكانت آذانهم (أُذُنُ خير) ، فإن شهادة الناس لأنفسهم ليست المصدر الوحيد لتقويم الأشخاص ، بل هوآخر المصادر ، إذ تسبقه عمليات الجرح والتعديل ، وشهادات العدول من الثقات ، وأقوال الاستفاضة ، وقيام قرائن الأحوال ، وما تفرزه الحياة الاجتماعية مع الناس والجماعية مع الدعاة من بروز خصائص الأفراد ومميزاتهم مما يجعل الخبرة والممارسة مورداً ضخماً للمعلومات عن الشخص ، واستكشاف حاله .

● ولقد أثبتت التجارب الدعوية أن مادح نفسه ، أو الذين يحبون أن يُمدحوا بما لم يفعلوا ، غالباً ما تكشف أوراقهم بسرعة ، ويتحول مديحهم إلى نوع من الهجنة المذمومة ، وتكون ألفاظهم ثقيلة الوطء على السامع ،إذ أن لحسن النيّة جمالاً في اللفظ ، وبهاءً في النطق ، وتأثيراً على قلب السامع ، كما أن فساد النية يورث سوءاً في اللفظ ، ولا ينفعها التزويق في اختراق شغاف القلوب ، وإذا كسب مديح الذات جولة ، فإنه لن يستمر فترة طويلة ، فسرعان ما يظهر لحن القول ، فتنسد دونه الآذان ، وتمجه النفوس ، ولا يظل عالقاً في القلوب إلا ما كان خالصاً لله تعالى وحده .

﴿ ... **فأمّا الزبد فيذهب جفاء ، وأمّا ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾ [1] .

● وعلى أية حال ، فإن أصل كراهية مدح الذات أو جوازه كاستثناء ، يخضعان لقاعدة (إنما الأعمال بالنيات) ، ومردهما إلى إخلاص المرء ، ومقدار ما يستشعره من مصلحة دينية أو دنيوية من المدح وضده ضمن الضوابط الشرعية ، والتوازن فى هذا الأمر مطلوب ، كأى أمر آخر فى الشريعة ، وعلى كل داعية أن يستوعب وصية الفقهاء .. أنه :

(لا ينبغى أن يجهل من نفسه مبلغ علمها ، ولا أن يتجاوز بها قدر حقها ، ولأن يكون بها مقصراً ، فيذعن بالانقياد ، أولى من أن يكون بها مجاوزاً ، فيكف عن الازدياد ، لأن من جهل حال نفسه ، كان لغيرها أجهل ...) [2] .

أمّا الأمراء والعلماء ، فإن أحدهم يوصى - أيضاً - بأن :

(يجتنب أن يقول مالا يفعل ، وأن يأمر بمالا يأتمر ، وأن يُسر غير ما يظهر ... فإن إصرار النفس يغريها ، ويحسن لها مساويها ، فإن من قال مالا يفعل فقد مكر ، ومن أمر بمالا يأتمر فقد خدع ، ومن أسرّ غير ما يظهر فقد نافق ...) [3] .

---

(١) سورة الرعد / ١٧ .

(٢) (٣) أدب الدنيا والدين ، للماوردي / ٨٤ / ٨٦ .

ولما كـان أصل كراهيـة مدح الذات والزهد فـيهـا الإخلاص ، فـإن الزهد فى المدح وكراهـيته يقـودان إلى الإخلاص من جهة أخرى ، فإنه :

(لا يجتمع الإخلاص فى القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس ، إلا كمـا يجتمع الماء والنار ... فإذا حـدثتك نفسك بطلب الإخلاص فـأقبل عـلى الطمع أولاً فاذبحـه بسكين اليأس ، وأقـبِل على المدح والثناء فازهد فـيهمـا زهد عشاق الدنيا فى الآخـرة ، فإذا استقـام لك ذبـح الطمـع والزهد فى الـثناء والمـدح ســهل علـيك الإخلاص ..) [1] .

ويليق لك فى الآخـر أن تـعـجب مع ابن الجـوزى - رحـمـه الله - حيث تعجّب:

(عجبت لمن يعجب بصورته ، ويختـال فى مشيته ، وينسى مبدأ أمره ، إنما أوله لقـمة ضمت إليهـا جرعة ماء .... وأما آخـره فإنه يلقى فى التراب ، فيأكله الدود ، ويصير رفـاتاً تسفيه السوافى .... هذا خبر البـدن ، إنما الروح عليـهـا العمل ، فـإن تجـوهرتْ بالأدب ، وتقـومتْ بالعلم ، وعرفت الصانـع ، وقامت بحقه ،فمـا يضرها نقص المركـب ، وإن هى بقيت على صفتها من الجهالة شابهت الطين ، بل صارت أخسّ حالة منه ...) [2] .

---

(١) الفوائد لابن القيم / ١٦٨ .

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي / ٣٠٧ .

ثم أن تنصت لوصيته :

إخوانى : شمّروا عن سوق الدأب فى سوق الأدب ، واعتبروا بالراحلين فكأنكم بمبسوط الأمل قد انقبض ، وبمشيد المنى قد انتفض .

ياساكن الدنيا تأهب وانتظر يوم الفراق
وأعد زاداً بالرحيل فسوف يحدى بالرفاق

أين عزائم الرجال ؟ ، أين صرائم الأبطال ؟ ، تدّعى وتتوانى ، هذا محال .

إشتاقكم ويحول العزم دونكمُ فادعي بُعدكم عنى وأعتذر
وأشتكى خطراً بينى وبينكمُ وآية الشوق أن يُستصغر الخطر

إن هممت فبادر ، وإن عزمت فثابر ، واعلم أنه لا يدرك المفاخر من رضى بالصف الآخر. قال عمر بن عبد العزيز : خلقت لى نفس تواقة لم تزل تتوق إلى الإمارة ، فلما نلتها تاقت إلى الخلافة ، فلما نلتها تاقت إلى الجنة . (١) .

والله وحده الهادى إلى سواء السبيل ، والموفق للخير ، والعاصم من الزلات .

* * * *

---

(١) المدهش لابن الجوزي / ٢٢٨ .

الفهرس



رقم الايداع : ٩٤/١٠٦٣٦
I.S.B.N 977-262-053-7





عيون الأعيان

دعاة الإسلام هم أعيان الجيل الحاضر ، لاجدال ، بما وهبوا من همة تحرص علي الاصلاح ، وتجرّد يعيد ضرب المثال .

ولهم تصدر هذه السلسلة ...

فلهم مع كل إشراقة جديدة .. تحية ...

إن هدف « رسائل العين » يتركز في كشف الآفاق الرحبة لفقه الدعوة ، وتجارب العمل الإسلامي ، وأنماط معاناة المربين ، ووضع كل ذلك بين يدي شباب الصحوة الإسلامية ، تعليماً لهم ، وتمكينا .

لكن الأبعاد الحضارية مكملة لكل ذلك ، لأنّا نعيش حياة الانفتاح من جهة ، ونواجه حضارة مغايرة تتدسّس بهدوء ولباقة أو تجاهر بالغزو ، من جهة أخري ، فكان لابد للداعية المسلم أن يسعي نحو الثقافة الشمولية وأنواع العلوم والفنون ليعلو فوق التيار مسيطراً مهيمناً ، وكان علي هذه السلسلة أن ترافقه في دربه الحضاري هذا ، تعين ، وتستكشف له ، وتنبيه الخبر .

علي أن الاستقصاء في إيراد كلام الفقهاء ومراجع نصوصهم ليس من وسيلة هذه الرسائل ، وإنما هو الاستئناس والتبرك بأقوال السلف ، ولانري أن يلزمنا داعية ماألزمته الجامعات أصحاب البحوث ، وإنما نهتم نحن بالتعليل والقياس والتأويل ؛ مما يوجب علي الممارس التأمل في عباراتنا علي ضوء واقع العمل الإسلامي ، وأن يدرك المعاني التي نذهب إليها من خلال الإشارات والمجاز .

فقرر أن تكون حسَن المطالعة والاستيعاب ، بمقابل ماترجوه منّا من حُسْن الكتابة والاختيار ، وكرر المطالعة : يؤذن لك بمزيد فهم ، وقدّم نسخا أخري من هذه الرسائل هدية إلي إخوان لك : تنتشر الفوائد ، ويروج مذهبك في الاصلاح ، ويقتنع بمثل قناعتك عدد أوفر ، فتكون النتيجة أقرب .

ثم سبّح معنا ربّاً هاديا ..... ونصيراً

دار البشير للثقافة والعلوم
طنطا : أمام كلية التربية النوعية
☎ 322404 فاكس : 331800 . 228277
وكلاء التوزيع بالدول العربية
بالمملكة المغربية
دار الإعتصام للطباعة والنشر والتوزيع
35 . 33 الشارع الملكي ، الأحباس ، الدار البيضاء
هاتف : 304285 فاكس : 444539
بدولة فلسطين
مكتبة اليازجي
غزة ش الوحدة ☎ 867099 07
فاكس 867099 07